IUGJIS
Vol 27, No 2, 2019, pp 116 - 142

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2018-02-03)، تاريخ قبول النشر (2018-03-12)

أثر وقع القرآن الكريم على الإنسان

د. أحمد سعيد صالح عزام[1]،*

[1] جامعة القدس المفتوحة / فلسطين – جنين

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: dr.ahmazzam@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوعاً من أهم المواضيع التي بحثت في الإعجاز اللغوي للقرآن ، وهو(أثر وقع القرآن الكريم على الإنسان)، ونقصد به-الوقع اللغوي-، أو النغمة القرآنية الخاصة، والموسيقى التي يشعها النسق القرآني، وأثرها البالغ على النفس والجسد، وهي من أهم أسراره ومقصوده الأول، لأنها تسمو بالنفس البشرية إلى أعلى درجات سموها الروحي، وتصل قلبه بخالقه وبارئه.

فبدأ الباحث في بيان مفهوم الإيقاع ، وذكر تحدي البشر بهذا الأسلوب المتفرد من بين جميع الأساليب التي عرفها الناس. ثم تناول الباحث أثر النغمة والإيقاع القرآني على العرب (مسلمهم وكافرهم)، وأثره على غير العرب (مسلمهم وكافرهم) .

وتطرق في بحثه إلى موضوع العلاج بالقرآن (العلاج النفسي والعلاج الجسدي)، وأنهى البحث بعدة نتائج وتوصيات خرج بها من بحثه، وأهم هذه النتائج: أن إيقاع القرآن يخاطب كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، لأنه يخاطب الروح البشرية، والبشر كلهم سواء في هذه الروح، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم .

كلمات مفتاحية: القرآن، الإعجاز، النغمة القرآنية، الإنسان، الإيقاع.

The effect of Qur'an rhythm on People

Abstract

This research deals with one of the most important subjects that discussed the lingual miracle of Qur'an . It's (The effect of Qur'an rhythm on People) which means the special tone of Qur'an , the music that rays from , the Qur'an mode and its effect on the human beings which is one of its most important secrets and aims . This soars with the human beings to the highest degrees of the spiritual highness that connects their hearts with their creature.

After that the researcher begins to show the meaning of the rhythm during challenging the human beings with this unique style from different styles that people know.

Then the researcher talks about the treatment with the Qur'an (psychologically and physically).

Finally , the researcher ends his research with some important recommendations and results that he finds out in it , and the most important of its results is that the impact of Qur'an speaks to any human being if he understands it or not because it speaks to the human soul and all people are the same with this soul ,regardless of their race , language and colour .

Keywords: The holy Quran- Rhythm- The miracle of Quran- the tone of quran- human bein.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله،،

لهذا البحث قصة في النفس، كانت هي السبب والدافع لكتابته. فمنذ ثلاثين عاماً بدأ وقع القرآن يثير في النفس فضولاً، لمعرفة سر هذا الإيقاع العجيب، الذي يتغلغل في مداخل القلب والنفس البشرية، لتدرك وجوداً غيبياً أعظم بكثير مما يدركه البصر والعين المجردة .

وبقي هذا الأمر يدفع بهذا الاتجاه – الذي أجد النفس قاصرة عن إدراك حقيقة الأثر القرآني على الإنسان–، والذي لا تكاد النفوس البشرية تخطئه –على اختلاف أجناسها وأعمارها ومستوياتها وألوانها ولغاتها أيضاً–، متى كانت هذه النفس مستعدة للتلقي والاستماع. فهذا هو الدافع الأول لهذه الدراسة .

والسبب الثاني: هو الظلم الذي تلقته هذه النغمة القرآنية قديماً– ممن كتبوا في الإعجاز –، مع الاعتراف سلفاً بالجهود المشكورة التي بذلت لإدراك أسرار الكتاب العزيز–، لكنها جهود غفلت –في العصور الأولى– عن أهم جانب من جوانب الإعجاز اللغوي، وهو أثر نغمته وموسيقاه الخاصة في النفس والروح، ولم يفطن العلماء – لدراسة هذه الزاوية– إلا بعد قرون من عصر النبوة، فكان أولهم الإمام الخطابي[1]،الذي أشار إليه إشارة سريعة –كما سنرى في البحث –، حتى جاء المعاصرون وبدأوا بدراسة هذا الموضع دراسة لم يوفها حقها حتى الآن .

السبب الثالث: هو ما نسمعه باستمرار من أثر موسيقى القرآن ونغمته على الأمم التي لا تعرف العربية، فتدفع الكثيرين – بجمالها وجاذبيتها– لدخولهم في الإسلام.

وبهذا يمكن أن تكون مفتاحاً للقلوب، وعاملاً هاماً ومساعداً للدعاة إلى هذا الدين بين هذه الأمم .

هذا وقد اقتصر البحث على أثر الإيقاع اللغوي فقط، ولم يتطرق الباحث إلى أي موضوع من مواضيع القرآن الأخرى، أو المعاني التي يحتويها النص القرآني .

منهج البحث: سلك الباحث في هذا البحث المنهج الوصفي والمنهج التحليلي، واستند في البحث إلى نصوص القرآن والسنة، كما اعتمد على دراسات المتأخرين، بسبب قلة الدراسة في هذا الموضوع عند المتقدمين .

خطة البحث: قسم البحث إلى عدة مباحث ومطالب.

المبحث الأول :

المطلب الأول : ماذا نعني بوقع القرآن

المسألة الأولى : تعريف الإيقاع لغة .

المسألة الثانية : تعريف الإيقاع اصطلاحاً .

المطلب الثاني : وفيه مسألتان

(1) هو حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي، أبو سليمان: فقيه محدث، من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب، ولد سنة 319ه، وتوفي سنة 388ه. الزركلي، الأعلام (ج273/2).

المسألة الأولى : التحدي بالقرآن

المسألة الثانية : وقع القرآن الخاص وتميزه عن كلام البشر أجمعين .

المبحث الثاني : أثر وقع القرآن على القلب والنفس البشرية .

المطلب الأول : أثر وقع القرآن على قلوب العرب المؤمنين به .

المطلب الثاني : أثر وقع القرآن على قلوب العرب الكافرين به .

المطلب الثالث: أثر وقع القرآن على قلوب(غير الناطقين باللغة العربية) مؤمنين وكافرين.

المبحث الثالث : علاج الأمراض بالإيقاع القرآني .

المطلب الأول : علاج الأمراض النفسية والعصبية بالإيقاع القرآني .

المطلب الثاني : علاج الأمراض الجسدية المادية بالإيقاع القرآني .

والله الموفق

المبحث الأول :

المطلب الأول : ماذا نعني بوقع القرآن

المسألة الأولى : الوقع لغة .

الوقع: (صوت الضرب بالشيء، يقال: سمعت وقع المطر ووقع الأقدام[1]، ووقع المطر: (شدة ضربه الأرض إذا وبل، ويقال: سمعت لحوافر الدواب وقعاً ووقوعاً. وفي القرآن: (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة ..) (ولما وقع عليهم الرجز) ومعناه: أصابهم ونزل عليهم، ووقع منه الأمر موقعاً حسناً أو سيئاً. والواقعة: النازلة من صروف الدهر. والوقعة والواقعة: صدمة الحرب. ويقال: إن هذا الشيء ليقع من قلبي موقعاً، يكون ذلك في المسرة والمساءة)[2]، و(وقع الطير على الشجر ونحوه، أي نزل، ووقع تحت طائلة القانون: خضع للعقاب بحسب أحكام القانون، ووقع في قبضته: حازه، تحكم فيه)[3].

ووقع الكلام في نفسه: أثر فيها، ووقع حديثه في نفسي موقعاً حسناً، ولكلامه وقع حسن، وتركت النصيحة وقعاً حسناً[4].

وخلاصة القول –من خلال التعريفات اللغوية – أن الإيقاع يطلق على الصوت والنزول والوقوع والأثر.

المسألة الثانية : تعريف الإيقاع اصطلاحاً.

الإيقاع: من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها[5]. ويقال: أوقع المغني: بنى ألحان الغناء على موقعها وميزانها. والإيقاع: اتفاق الأصوات وتوقيعها في الغناء[6].

وفي معجم مجمع اللغة (إيقاع الأصوات: اتفاقها وتوقيعها على مواقعها وميزانها، وإيقاع المغني: بناؤه ألحان غنائه على مواقعه وميزانها. وعلم الإيقاع: دراسة الأوزان الشعرية والإيقاع. الذي هو عبارة عن النقرات التي تتالى من خفيف وثقيل مصاحبة للنغم)[7].

وأما مفهوم الإيقاع القرآني المتميز وتأثيره الخاص على النفوس، فيعرفه العلماء –الذين كتبوا في هذا المجال –: بأنه ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن العظيم على النفوس هيبة وحلاوة ورغبة ورهبة، ويطلقون على هذا الوجه في القرآن الكريم بـــ (الإعجاز الروحي)[8].

فالإيقاع القرآني: هي تلك النغمة الخاصة والصوت العذب الجميل ، الذي يؤثر في النفوس ، ويستولي على الحس الداخلي للسامعين ، ويشد النفس نحو أهداف القرآن ومقاصده السامية .

المطلب الثاني :

---

(1) إبراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج1051/2).
(2) ابن منظور، لسان العرب (ج402/8-404).
(3) عمر، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصر(ج2480/3).
(4) المرجع السابق (ج2480/3).
(5) ابن منظور، لسان العرب (ج408/8).
(6) إبراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج1050/2).
(7) عمر، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصر(ج2481/3).
(8) عباس، فضل وسناء، إعجاز القرآن الكريم (ص341).

المسألة الأولى : التحدي بالقرآن الكريم.

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[1] فكان هذا الوحي هو القرآن، ويستشف من الحديث النبوي أن جمال القرآن وجاذبيته، وتأثيره البالغ في النفوس، سيجعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أكثر الأمم يوم القيامة.

وقد انعقد إجماع المسلمين على أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم العظمى هي القرآن الكريم، ولا معجزة له باقية سوى القرآن[2]، فتحدى الخلق جميعاً إنسهم وجنهم بأن يأتوا بمثله بقوله سبحانه: { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء: 88]، فعجزوا وثبت عجزهم منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، (وهذا أمر لا خلاف فيه بين العقلاء)[3]، وما ذلك إلا لأن هذا القرآن خارج عن طاقة البشر وعن أساليبهم على الإطلاق، من كان منهم ومن بقي إلى يوم الدين. وبهذا ثبت التحدي وثبت العجز عنه، وتحقق وعد الله الذي جزم به قبل بضعة عشر قرناً من الزمان بقوله: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 23]. قال البغوي: (فإن لم تفعلوا فيما مضى، ولن تفعلوا أبداً فيما بقي)[4] فقوله تعالى: (فأتوا بسورة) تحدي عجيب ومغامرة كبيرة، لو كانت صادرة من مخلوق، كما أن قوله تعالى: (ولن تفعلوا)هو جزم بعدم وقوع المعارضة أبداً، وهي كلمة لا تخرج من عربي بليغ يعرف البلاغة وكيف هي، لأنها كلمة حاسمة جازمة لا تحتمل الشك والتردد، ولا تصدر إلا ممن بيده الخلق والأمر، (وفيه دليل على إثبات النبوة، وكون التحدي به معجزاً؛ لأن الإخبار بأنهم لن يفعلوا غيب لا يعلمه إلا الله)[5].

وقد ذكر العلماء بأن هذا التحدي مر بمراحل :

المرحلة الأولى: التحدي بالقرآن كله.

قال تعالى: { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88]، فلما عجزوا وبان عجزهم أمام الناس. أرخى لهم العنان قليلاً فنقلهم إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: التحدي بعشر سور مثله.

قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: 13]، فأظهروا عجزهم، فأرخى لهم عنان التحدي ونقلهم إلى مرحلة أخرى .

---

(1) البخاري: صحيح البخاري، فضائل القرآن/ كيف نزل الوحي وأول ما نزل، 182/6: رقم الحديث (4981) ، مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/ وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، 134/1: رقم الحديث (152). من رواية أبي هريرة –رضي الله عنه–.

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ج118/1).

(3) المرجع السابق (ج117/1).

(4) البغوي ،معالم التنزيل في تفسير القرآن المعروف بـــ تفسير البغوي (ج94/1).

(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بتفسير النسفي (ج1/ 66) .

المرحلة الثالثة : التحدي بسورة مثله .

قال تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس: 38]، فعجزوا عن ذلك، فانتقل بهم إلى مرحلة أدنى وهي المرحلة الرابعة .

المرحلة الرابعة : التحدي بحديث يماثله، ولو كان قليلاً، دون التقيد بالسورة الكاملة.

وهذا بعد أن ثبت عجزهم عن السورة الكاملة، فتحداهم بقطعة واحدة ،– مما يسمى حديث في عرف أهل اللغة – يشبه القرآن في مزاياه المعروفة ويماثله. فالتحدي هنا بشيء قليل دون التقيد بسورة كاملة. وهو قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } [الطور: 33، 34]. فهذه الآية نزلت بعد سورتي هود ويونس، وسورة الإسراء نزلت قبلهن، كما ذكر المفسرون[1]، مما يدل على أن هذه المرحلة جاءت بعدها . ثم نزل بهم بالتحدي إلى أدنى مراحله النهائية، وهي المرحلة الخامسة والأخيرة.

المرحلة الخامسة : التحدي بسورة من مثله (أي فيها شبه دون التماثل الكامل)[2].

فقال لهم: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) } [البقرة: 23، 24]، وهناك فرق كبير بين المراحل السابقة وهذه المرحلة، وهي زيادة حرف (من). ففي المراحل السابقة طلب منهم سورة أو كلاماً يتماثل مع نظم وسوره القرآن، بجميع ميزات الكلام الإلهي الذي اشتمل عليه القرآن، بينما في هذه المرحلة، لم يشترط التماثل بين السورة المطلوبة منهم وسورة القرآن، وإنما طلب التشابه، بحيث لو عرضت السورتان أمام العرب أو البلغاء لظهر تشابه بين الأصل والتقليد، ولو لم يكن بينهما تطابق أو تماثل. وكأن القرآن يقول للعرب: لئن أعجزكم هذا القدر اليسير أن تحذوه على التمام لم يكن ليعجزكم أن تنزلوا منه بمكان قريب. وبهذا أرخى القرآن العنان للعرب في معارضته، فطلب منهم أن يأتوا بمثله كلاً أو بعضاً، وكثيراً أو يسيراً، ومماثلاً أو قريباً من المماثل، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء[3].

المسألة الثانية : وقع القرآن الخاص وتميزه عن كلام البشر أجمعين .

لا يشك بليغ ولا عالم بأن القرآن الذي بين دفتي المصحف الشريف كلام متميز تميزاً واضحاً قاطعاً في أسلوبه عن كل كلام يقوله البشر. يدرك ذلك بوضوح كل من اطلع على أساليب الناس قديماً وحديثاً. فهذا نظمهم ونثرهم ظاهر بين أيدينا لا زالت المكتبات العربية طافحة بما قالوا وما كتبوا. والجدال في هذه الحقيقة ناشئ عن جهالة لا تميز أو غرض يلبس الحق بالباطل؛ لأنه (مهما اختلفت منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين، والتوشيحات والأزجال المعروفة عند المولدين. ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكتاب، والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام

(1) رضا، محمد، تفسير المنار(ج38/12).

(2) دراز، النبأ العظيم (ص121).

(3) انظر: دراز، النبأ العظيم (ص104–105)، رضا، محمد، تفسير المنار(ج36/12)، جامعة القدس المفتوحة، مقرر إعجاز القرآن(ص31–32).

الأربعة – مرسلاً ومسجعاً قصيداً ورجزاً –، ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها، ولكل منهم نظم وأسلوب خاص. فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي، فائت بقارئ حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين، وخطب المصاقع المفوهين ،المتقدمين والمتأخرين، بكل ما يستطيع من نغم وتحسين، ثم ليتل عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب، كسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد –مثلاً–، ثم حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها، ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغائهم، وتأثير كل من الكلامين في نفسك بعد اختلاف وقعه في سمعك)[1].

فهذا هو الأسلوب الظاهري للقرآن الكريم، وقد أدرك ذلك المتقدمون من علماء العربية والإعجاز[2]، وعادتهم في التعبير عن هذه القضية بعبارات ، كقولهم (اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب ، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب، في مطالعه وفواصله ومقاطعه)[3]. فهو (مظهر غريب لإعجازه المستمر، ولا يحتاج في تعرفه إلى روية أو إعنات، وما هو إلا أن يراه من اعترض شيئاً من أساليب الناس حتى يقع في نفسه معنى الإعجاز؛ لأنه أمر يغلب على الطبع وينفرد به فيبين عن نفسه بنفسه، كالصوت المطرب البالغ في التطريب، لا يحتاج امرؤ في معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه... وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك، ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام إنسان. بيد أننا لم نر أحداً كشف عن سر هذا المعنى، ولا ألم بحقيقته، ولا أوضح الوجه الذي من أجله خالف أسلوب القرآن كل ما عرف من أساليب الناس، ولم يشبه واحداً منها)[4]. وهذا لا يخفى على من أوتي حظاً من معرفة الكلام ولديه القدرة على تمييز أساليب الأدباء والشعراء والخطباء فهو كما قال الدكتور دراز: (أسلوب عجيب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول، وكأنه بينها –على حد قول الأدباء– وضع مرتجل، لا ترى سابقاً جاء بمثاله، ولا لاحقاً طبع على غراره، فلو أن آية منه جاءت في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها، واستمازت من بينها، كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام)[5].

وقد أدرك العرب هذا المعنى بمجرد أن قرع أسماعهم وقلوبهم، لأن (أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن، هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آناً بعد أن، إلى أن يصل الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إذا كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها، فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حد الإملال في التكرير، فإنها ما كانت تعهده قد ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في

(1) انظر: رضا، محمد، تفسير المنار(ج1/166-167).

(2) مثل الإمام (أبو بكر الباقلاني) في كتابه (إعجاز القرآن) ، فقد بالغ وأسهب القول في هذا الموضوع في عدة مواطن من كتابه . خاصة في الرد على من ادعى وجود السجع في القرآن ، وبين بأن أسلوب القرآن متفرد في نسقه وإيقاعه وجماله ، لا يشبهه نظم ولا نثر عرفه العرب من قبل.

(3) رضا، محمد، تفسير المنار (ج1/166).

(4) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص 201).

(5) دراز، النبأ العظيم (ص117).

منثور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها ما يغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه. ولا عجب إذاً أن يكون أدنى ألقاب القرآن – في خيال العرب– أنه شعر، لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر، ولا عجب أن ترجع إلى نفسها فتقول: ما هو بشعر، لأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا قصيده، ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة إلى أنه ضرب من السحر، لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته)[1]. حتى إن العلماء قديماً احتاروا في تصنيفه، بعد أن ثبت لديهم بأنه ليس على أعاريض الشعر ولا بحوره في شيء، فمنهم من ألحقه بالنثر فقال: (هو نوع من النثر الفني الجميل المتفرد) [2] ومنهم من قال: بأنه(ليس شعراً ولا نثراً وإنما هو قرآن)[3]، وهو أسلوب فريد جديد لا يمكن أن يلحق بأي نوع من أنواع الكلام الذي تعاطاه العرب من قبل.

يقول أبو العلاء المعري[4]: (وأجمع ملحد ومهتدي وناكب عن المحجة ومقتدي، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا في الرجز من سهل وحزون[5]، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الإرب... وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق[6]، والزهرة البادية في جدوب[7]ذات نسق) [8].

وهذا الخلاف عند أهل العربية في تحديد نوع الأسلوب القرآني لا يعارض إجماعهم على أن النسق القرآني متميز لا يشبه شيء مما يقوله الناس، لأن الخلاف في السمة العامة لهذا الأسلوب الفريد، هل يمكن اعتباره نوعاً جديداً من النثر الفريد، مع أنه لم يخرج عن مناهج العرب، أم أنه خارج عن ما عرف من مناهج العرب في التأليف في نظمهم ونثرهم..؟! [9]

(1) دراز، النبأ العظيم (ص132).

(2) قطب ،سيد ، التصوير الفني في القرآن(ص 103).

(3) المرجع السابق (ص103)، نقلاً عن كلام د. طه حسين.

(4) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي المعري، شاعر فيلسوف. ولد في معرة النعمان سنة363ه، ومات سنة 449ه. الزركلي، الأعلام (ج157/1).

(5) حُزُونٌ: مفردها الحَزْنُ: وهو ما غلظ من الأرض. ابن منظور، لسان العرب (ج112/13).

(6) غَسَقَ: كلُّ شيءٍ اسودَّ. ابن منظور، لسان العرب (ج384/4).

(7) جُدُوبٌ: مفردها جَدْبَةُ: وهي الأرض التي ليس بها قليل ولا كثير ولا مرتع ولا كلأ. ابن منظور، لسان العرب (ج256/1).

(8) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص 186)، نقلاً عن كتاب أبي العلاء المعري في رسالته التي رد بها على ابن الراوندي.

(9) كتب الأستاذ / أحمد بسام الساعي كتاباً جديداً في هذا الموضوع، وأثبت فيه تميز أسلوب القرآن ولغته عن جميع ما عرفته العربية قديماً وحديثاً، وهو سفر ممتاز في موضوعه، ولا نعلم أحداً كتب في هذا الموضوع كتاباً مستقلاً – بهذا الحجم وبهذه الجزئية المهمة في باب الإعجاز اللغوي، وينصح بالرجوع إليه للتوسع في هذا الباب، (الساعي ، أحمد ، المعجزة، إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن، الجزء الأول/ ظواهر التجديد في لغة القرآن الكريم، (ج1/ 67) وما بعدها).

أما كون النسق القرآني بائن بذاته متميز من كل كلام يقوله البشر، حقيقة يدركها كل من له أدنى اطلاع على كلام الناس وخطاباتهم وأساليبهم (فما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها، وتستولي على الحس الداخلي للسامعين، وتنحي ما عداها من قول البشر المحير الذي تعب فيه القائلون)[1].

فهذا القرآن فيه عزة وغرابة فوق الجمال الذي امتاز به وتميز به عن غيره، وهذه (الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين،... ففيه منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة هي غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم واللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين ، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قاريء، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد) [2].

وبهذا انفرد النظم القرآني عن كل كلام يقوله البشر ، وتميز عن أساليب الخلق ، وكان علامة ودليلاً قاطعاً على عجز البشر عن مثله (فإنه من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبداً ، فإنه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فأنى لكلام المخلوقين يشبه كلام الخالق؟!.)[3].

وهذا مما حير العلماء قديماً وحديثاً ، ولم يهتدوا إلى سر تميزه حتى الآن، حتى قال بعض المستشرقين (إن جمال القرآن الأدبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل، وهما يضعان من يتلوه –ولو كان أقل الناس تقوى – في حالة خاصة من الحماسة) [4].

فالدارس الواعي – بموضوعية مجردة– يلحظ بوضوح في القرآن الكريم بجملته الطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه؛ (لأن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة، وحسها المتوفز مرة. ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها، وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق، وبهذا الشمول، وبهذه الدقة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً) [5]. ومن عجائب الأسلوب القرآني الذي تميز به عن كل كتاب وضعه البشر على الإطلاق أنه(لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن(ج1321/3).

(2) انظر: دراز، النبأ العظيم (ص 134–135).

(3) ابن حميد، وآخرون، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ج522/1).

(4) وهو المستشرق (در منغم) في كتابه (حياة محمد) نقلاً عن كتاب (محمد رسول الله لبشري زخاري ميخائيل ص34)، انظر: نضرة النعيم (ج522/1).

(5) قطب، في ظلال القرآن(ج1788/3).

الرد، ولا تنقضي عجائبه)[1]، لأن للبلاغة البشرية –مهما بلغت قوتها– (على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال عليه في الضعف شيئاً فشيئا بتكرار سماعه، حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها، وليس هذا شأن القرآن، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً)[2]، حتى وصفه المستشرق (ديزيريه بلانشيه) بقوله: (كفى هذا القرآن مجداً وجلالاً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه، بل لا يزال غضاً كأن عهده بالحياة أمس)[3].

والغريب الذي يصعب تفسيره، أنه مع إدراك علمائنا السابقين رحمهم الله– لحقيقة تميز النسق القرآني وإيقاعه الغريب بين كل كلام وضعه العرب، إلا أننا لا نجد كتاباتهم في مجال النغمة القرآنية يوازي حقيقة هذا الإعجاز. بل أغفلت الأجيال الأولى من علماء البلاغة أهم ما في هذا الإعجاز البياني، وهو إيقاعه وتأثيره في النفوس، حتى كان أول من طرق موضوعه هو الإمام الخطابي رحمه الله[4].

وهذا ليس إنكاراً لجهودهم العظيمة في باب الإعجاز ، ففضلهم لا ينكر، لكن كان المنتظر منهم –نظراً لسعة علمهم وقدرتهم على فهم الكلام البليغ وقربهم من أهل العربية بالفطرة– أكثر من هذا بكثير ، خاصة في مجال النغمة والإيقاع القرآني .

ولا ينكر أحد –أيضاً –أن العلماء الذين جاءوا بعدهم ، وخاصة العلماء المعاصرين منهم، بحثوا هذه القضية، ولكن المتتبع لكتاباتهم يجد أن هذه الكتابات بعضها من بعض. وتكاد ترجع كتاباتهم إلى أفراد قلائل[5]، وبقية الكتاب ألبسوا ما أخذوه من هؤلاء أثوابهم وأساليبهم، دون أن يأتوا بشيء يستحق الوقوف عنده، أو اعتباره وضعاً جديداً في باب الإيقاع القرآني .

المبحث الثاني : أثر وقع القرآن على القلب والنفس البشرية .

من خلال دراسة تاريخ الإعجاز، والاطلاع على من كتبه العلماء، يظهر بأن أول من كتب في خاصية تأثير القرآن وتسلطه على القلب والنفس البشرية، وأنه متميز عن غيره في هذا الوجه، هو الإمام الخطابي رحمه الله في رسائله، فقال: (قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه،

(1) الترمذي: سنن الترمذي، فضائل القرآن / ما جاء في فضائل القرآن، 22/5، رقم الحديث (2906). حكم عليه الشيخ الألباني رحمه الله بالضعف. الألباني، صحيح وضعيف سنن الترمذي(ج406/6). من رواية علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–.

(2) عباس، فضل وسناء، إعجاز القرآن الكريم (ص343).

(3) ابن حميد، وآخرون، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ج523/1). وقال صاحب نضرة النعيم في الحاشية: والمستشرق هو: صاحب كتاب (دراسات في تاريخ الأديان)، راجع كتاب (محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل) لبشرى زخاري ميخائيل ص35.

(4) سيأتي ذكره فيما بعد، في المبحث الثاني، ص12.

(5) من هؤلاء القلائل (مصطفى صادق الرافعي، د. عبد الله دراز، الأستاذ سيد قطب، محمد رشيد رضا).

وصارت عداوتهم موالاه، وكفرهم إيماناً)[1]. والمعاصرون من علماء الإعجاز يطلقون على هذا الوجه من التأثير بـــ (الإعجاز الروحي)[2]. فالقرآن –من هذا الوجه– له أثر على العرب عامة (مؤمنهم وكافرهم)، وأثر أيضاً على غير العرب، وذلك لأن (في القرآن سراً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، يصعب تحديد مصدر)[3].

المطلب الأول: أثر وقع القرآن على قلوب العرب.

بعد أن ثبت تميز القرآن الكريم عن كلام المخلوقين، فإنه لا بد وأن يكون وقعه في النفوس والقلوب متميز كذلك، إذ أن الكلام لا يكون شيء يذكر إذا لم يكن له وقع وأثر في نفس المخاطب، وإلا لكان ضرباً من اللغو الذي لا طائل تحته. فلما نزل القرآن بلغة العرب كان لا بد أن يكون العرب أول من تأثروا به. وهنا مسألتان :

المسألة الأولى: أثر وقع القرآن على قلوب العرب عامة.

كان العرب يدركون طبيعة القول وأثره في النفوس، إذ كانت بضاعتهم التي يتفاخرون بها، (فلما قُرأ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله ألحاناً لغوية رائعة كأنها لانتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها)[4]. وهم أهل اللغة ،وأدرى بطبيعة لغتهم، ومدى تأثيرها في النفس، فما أن قرع القرآن أسماعهم –في أسلوبه الفريد– حتى وقع في قلوبهم ما يشبه الصدمة التي هزت كيانهم، وقلبت نفوسهم، (مما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة اللغوية، وتخلف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب)[5]، فكان أثره على قلوب العرب مسلمهم وكافرهم .

وسجل القرآن هذه الحقيقة من شهادتهم على أنفسهم، حيث قال سبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: 26]، فكان الرعب يتملكم من مجرد سماع القرآن، فيتناهون عن سماعه، ويأمرون من حولهم بذلك، حتى لا يقعوا تحت سلطان هذا الكلام العجيب، الذي يغلب على الطبع البشري. ولا شك أن هذا يدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم ، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآتيتين، والسورة والسورتين، يتلوها محمد أو أحد أتباعه السابقين، فتنقاد إليهم النفوس، وتهوي إليهم الأفئدة،

(1) الخطابي، وآخرون، كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن(ص70).

(2) عباس، فضل وسناء، إعجاز القرآن الكريم (ص340–341).

(3) ثم يحتار سيد قطب في (تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟!! ذلك سر مودع في كل نص قرآني ،يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً) في ظلال القرآن (3399/6).

(4) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص214).

(5) المرجع السابق ص189.

ويهرع إليهم المتقون، ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة، وهم في نجوة من سحر القرآن، فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير) [1].

وقد ورد في السيرة النبوية العديد من الروايات التي تؤكد هذه الحقيقة، منها ما روي (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه، فقال يا عم: إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض عن ما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له أو كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما منكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، فوالله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة[2] وإنه لمثمر[3]أعلاه مغدق[4]، أسفله وإنه ليعلو وما يعلى ،وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، فنزلت: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) } [المدثر: 11– 25][5]، ووصل بهم الأمر إلى أن كبارهم كانوا يتسللون سراً، ليستمعوا إلى تلاوته من فم النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً، ليتذوقوا هذا الكلام الغريب العجيب.

روى ابن إسحق عن الزهري أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا ،وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ،فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا... ثم عادوا في الليلة الثانية فتلاقوا وتلاوموا... ثم عادوا في الليلة الثالثة فتلاقوا فتلاوموا، ثم تعاهدوا بأن لا يعودوا... فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ،فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وأشياء ما عرفت معناها، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم :ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من

(1) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن(ص14–15).

(2) لطلاوة: أي رونقا وحسنا. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (137/3).

(3) المُثْمِر: الذي بلغ أن يجنى. ابن منظور، لسان العرب (ج107/4).

(4) الغدق: بفتح الدال، المطر الكبار القطر، وأغدق المطر يغدق إغداقاً فهو مغدق ، وعين غديقة أي كثيرة الماء. ابن منظور، لسان العرب (ج283/10).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (ج61/3)..

السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه)[1].

المسألة الثانية : أثر وقع القرآن على قلوب العرب المؤمنين به.

ثبت أن أثر القرآن كان له الوقع الذي هز قلوب المعاندين، واخترق شغاف قلوب كانت تصر على الكفر به، فغلبهم بسلطانه العجيب. فإذا كان أثره البالغ على نفس المعاندين، كان من الطبيعي أن يكون أثره أبلغ في نفوس المؤمنين به. وأول من تأثر به وتشربت نفسه به هو أول من قرع سمعه وقلبه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويروي الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إقرأ علي، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء، أتيت على قوله: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } [النساء: 41]، فقال: حسبك الآن... فإذا عيناه تذرفان...)[2].

ومما لا شك فيه أن سلطان القرآن الكريم كان هو العامل الأساسي والحاسم في إيمان غالب من آمن من العرب ، فما أن يسمع العربي هذا النسق الغريب، حتى يقع في قلبه الحق الذي لا مرية فيه، ويدرك أن هذا الخطاب لا يمكن إلا أن يكون صادراً من فاطر السماوات والأرض، فمنهم من عاند وأعرض، ومنهم من كتب الله في قلبه الإيمان والإسلام. فالقرآن أذهل العرب بما يشبه الصدمة في نفوسهم– من قوة بلاغته وغرابة تركيبه– (منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل الله على بصره منهم غشاوة. وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد –صلى الله عليه وسلم– وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر، كزوجه خديجة، وصديقه أبي بكر، وابن عمه علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل الدعوة، يوم لم يكن لمحمد –صلى الله عليه وسلم– حول ولا طول، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة.

وقصة إيمان عمر بن الخطاب، وقصة تولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي، وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر[3] القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتبينان –في اتجاهين مختلفين– عن مدى هذا السحر القاهر، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون) [4]. فعمر رضي الله عنه كان من أبعد الناس عن الاستجابة لهذا لدين، وأكثرهم شدة وضراوة في وجه الدعوة الجديدة، كما تروي لنا كتب السيرة[5]، وقد وردت روايات متعددة في قصة إسلامه، نختار منها ما رواه ابن إسحق عن عطاء ومجاهد أن عمر رضي الله عنه قال: (كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في

(1) ابن اسحاق، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، (ص189). ابن هشام، السيرة النبوية المعروف "بسيرة ابن هشام" (ج1/315–316)، وأخرجه البيهقي في كتابه دلائل النبوة، (ج2/206).

(2) البخاري: صحيح البخاري، فضائل القرآن/ قول المقرىء للقارىء حسبك ، 196/6: رقم الحديث (4763). من رواية عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه–.

(3) وصف الجمال القرآني (بالسحر) يقصد به السحر البياني، ويعنون به بلاغته الفائقة التي تسلب القلوب وتستحوذ على العقول ، والرسول صلى الله عليه وسلم وصف قوة البيان اللغوي بالسحر فقال (إن من البيان لسحرا) ، ولا يعني به السحر المعروف على الاطلاق، وقد نقلت كلام المؤلف كما هو مع أنني لا أحبذ هذا الوصف للقرآن الكريم.

(4) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن(ص11).

(5) حتى قالوا: لا يسلم ابن الخطاب حتى يسلم حمار الخطاب، ابن هشام، سيرة ابن هشام (ج1/343).

الجاهلية أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه الرجال من قريش ... فخرجت أريد جلسائي أولئك، فلم أجد منهم أحد، فقلت لو أنني جئت فلاناً الخمار...، وخرجت فجئته فلم أجده، قلت: لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني، فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام)[1].وهناك روايات أخرى وردت في سبب إسلامه، لكنها تتفق جميعها بأن إيقاع القرآن وأثره في نفسه كان هو العامل الحاسم في دخول الإسلام إلى قلبه .

ويلاحظ بأن القلوب–حتى المؤمنة منها– لا تكون مستعدة على الدوام لهذا التأثير والتجاوب مع الكلام الإلهي، وإنما يظهر ذلك في (اللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيئاً من حقيقة القرآن، يهتز فيها اهتزازاً، ويرتجف ارتجافاً، ويقع فيه التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام، أو أشد)[2]. وبهذا يتضح بأن (الإنسان في فترات صفائه يشعر بالتجاوب العميق بين هذا القرآن وبين نفسه، ولا غرو في هذا، فالإنسان نفخة من روح الله والقرآن روح چ ٱ ب ب ب پ پ ڀ ڀ چ [الشورى: 42]، ومصدر الروحين واحد، تبارك الله رب العالمين)[3].

وهذا العنصر في كتاب الله يتجلى في القلب، ويزداد إيقاعه وتأثيره كلما ازداد إيماناً بهذا الكلام. ومن هنا كان أكثر الناس شعوراً بهذا التأثير الغريب صنفان، الصنف الأول: الذين يخشون ربهم، والثاني: هم أهل العلم المستنير، ذلك العلم الذي يكون سبباً لهدايتهم، وليس أولئك الذين يضلهم الله على علم { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً } [الجاثية: 23]، وفي آية أخرى: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة: 26].

وقد سجل الله سبحانه في القرآن صورة المؤمنين الذين يخشون ربهم، حين يتأثروا بهذا الكلام الرباني، وتتجاوب قلوبهم وتتفاعل معه، ويتعدى هذا التأثير النفسي إلى التأثير المادي على جسد المؤمن، فيقشعر جلده ويظهر ذلك على قسمات وجهه.!! فيقول سبحانه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: 23].

فهذا الصنف الأول – من الأصناف الذين هم أكثر تأثُّراً بالكلام الإلهي–، وهم الذين يخشون ربهم، وأما الصنف الثاني، وهم أهل العلم المستنير، فقد ذكر الله لهم صورة لهذا التأثير في القرآن أيضاً، حين جاء وفد من علماء النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ على مسامعهم القرآن، فوجدوا أن ما فيه من حق يوافق العلم الذي درسوه في كتبهم وما نزل على عيسى

(1) ابن هشام، سيرة ابن هشام (ج1/347).

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن (ج6/3532).

(3) عزام، عبد الله، دلالة الكتاب والسنة على الأحكام من حيث البيان والإجمال أو الظهور والخفاء (ص119).

عليه السلام[1]. قال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84)} [المائدة: ٨٢-٨٤]، فالعلم السابق بالحق ساقهم إلى هذا التأثير العجيب بكلمات الله. (إنها تربية القرآن المعجز في حروفه قبل كلماته، وفي آياته قبل سوره، في أسلوبه وبيانه ونظمه واتساق حروفه وجرس آياته...)[2].

المطلب الثاني: أثر وقع القرآن على غير الناطقين بالعربية .

ليس من الصعب أن يفهم كل باحث- في القرآن -أثره العجيب في نفس كل عربي أو نفس كل من يعرف هذه اللغة أو ينطق بها، ولكن ليس من السهل أن يدرك سبب تأثيره في نفوس الذين لا يعرفون العربية ولا ينطقون بها، وقد تكون لغتهم بعيدة عن لغتهم، بحيث لا تتشابه مع العربية في حروفها ولا في نطقها. فكيف يمكن إدراك مثل هذه الحقيقة التي نواجهها كلما رأينا شخصاً لا يعرف حرفاً من العربية يقشعر جلده ويلين قلبه وتنهمر دموعه حين يستمع لهذا القرآن ؟!. فلا شك أن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة عميقة، وبحث للوصول إلى حقيقته وأسبابه ودواعيه .

وإذا تأملنا في قوله تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [الحشر: 21]. (والغرض من الآية، توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على جبل لتخشع وتصدع، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، ولكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر)[3].

وقد أشار ابن كثير - بوضوح- إلى حقيقة تأثير كلام الله في الذي يعقل -سواء فهم أو لم يفهم-، والذي لا يعقل أصلاً، حتى الجماد كالجبل الجلمود...!! فيقول عند تفسير هذه الآية (قال ابن عباس -عند هذه الآية-: أي لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل، حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع...، ثم قال: -ابن كثير بعدها- وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عمل المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن[4] كما يئن الصبي الذي يسكن، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده... وهكذا الآية..!!)[5]. وفي رواية البخاري: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها) [6]. فتأمل رواية

(1) وهم سبعة رهبان وخمسة قسيسين ،جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه ويعرفون خبره، والرواية مشهورة عند المفسرين وغيرهم ، انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (ج507/10).

(2) جامعة القدس المفتوحة، مقرر الثقافة الإسلامية (ص268).

(3) ابن حيان، البحر المحيط في التفسير(ج149/10).

(4) أنّ الرجل من الوجع يئن أنينا. ابن منظور، لسان العرب (ج28/13).

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم(ج89/8).

(6) البخاري، صحيح البخاري، المناقب/ علامات النبوة في الإسلام، (195/4)، رقم الحديث(3584). من رواية جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-.

البخاري هذه، وقول ابن كثير (لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده)، فإنه نص فيما نحن بصدده، لأن الذكر هو القرآن، وأن مجرد تلاوة الذكر والوحي الإلهي يؤثر في كل ما يسمعه، سواءً فهمه أو لم يفهمه.

وهذه الخصيصة في كتاب الله العظيم أدركها المسلمون منذ الفترة الأولى من نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يفتهم هذا المعنى، وهم أهل اللغة، وأعلم الناس بأسرار هذا الخطاب الرباني .

فعندما هاجر ثلة من الصحابة إلى الحبشة – من ظلم أهلهم –، ونزلوا في حماية النجاشي، بعثت قريش إليه وفداً لإقناع ملك الحبشة بإرجاعهم إلى أهلهم، وطردهم من بلاده. فلما دخلوا على النجاشي بهداياهم وكلموه بأمرهم بعث إليهم وسألهم عن أمرهم، فأجابه جعفر بن أبي طالب بأبلغ إجابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته التي بعث بها، ثم سأله النجاشي (هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ..!!)[1].

يقول الأستاذ سيد قطب: (إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً، وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير الذي نقول –وإن لم تكن هذه قاعدة–، ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل...، ولكن ما لنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شيء، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه وسره هذا...!!)[2].

ومع ذلك تبقى هذه الظاهرة سراً من أسرار هذا القرآن، لم يكشف سرها، ولا يعلم أحد كيف يتأتى هذا التأثير لهذا الكلام المعجز، الذي يؤثر في الكيان الإنساني، (تأثير الروح في الأجساد ،فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام البشري – في الشعور، فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها...، إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان (روحانية) يدركها من لا حظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة. ألا ترى إلى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته، –ولو بغير صوت حسن– حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن، فيما أراد التالي أن يغشهما. هذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس في صفحة كبيرة، فإنك ترى تلك الآية تتجلى من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار، مهما كانت درجة تلك

(1) ابن هشام، سيرة ابن هشام (ج1/336). والرواية ذكرت في العديد من كتب التاريخ والسيرة، مثل: السهلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ج2/ 94)، وأخرجها الإمام أحمد في مسنده، مسند الإمام أحمد بن حنبل(ج3/265–268)، أخرجها الألباني في كتابه صحيح السيرة النبوية (ص175).

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن (ج3/1786–1787). وذكر(سيد قطب) حادثة وقعت معه على ظهر سفينة مصرية في المحيط الأطلسي أثناء سفره إلى نيويورك، أثناء أدائهم صلاة الجمعة، وكانت معهم في السفينة سيدة يوغسلافية نصرانية، فعندما سمعت فقرات من القرآن من فم خطيب الجمعة جاءت إليهم وهي شديدة التأثير والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها، حتى قالت لهم: (إن الإمام كانت ترد في أثناء كلامه بهذه اللغة الموسيقية– فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه، نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً، هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعشة وقشعريرة، إنها شيء آخر، كما لو كان الإمام مملوء من الروح القدس –حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها..!!)

الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ. هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بها، وأما ظهورها للعارف فبين لا يحتاج إلى برهان، وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبتأثيرها ونتيجتها)[1].

وما كانت –مثل هذه الخصيصة في كتاب الله – لتفوت الأديب الرافعي، حين كان له السبق في هذا العصر في موضوع الإعجاز، فقال: (وهذه حالة مطردة يعرفها الناس جميعاً، وما من أعجمي يسمع ترتيل القرآن، إن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رفة للشجى والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه وتجيش نفسه بها، مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر، وقد لا يجد في الموسيقى ضرباً أسخف منها، لمكان اختلاف الأذواق، وما تجده ملحداً لا يؤمن بالله إلا وهو مؤمن بهذا الإعجاز في كتابه، حين يسمعه من صوت جميل، كأن النبوة حينئذ تلامسه. وكل من يزعم أن القرآن من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع البتة أن يشرك مع القرآن كلاماً آخر في هذه الخاصة، فكأنه يقر بمعنى الإعجاز وينكر لفظه، وما كان الدليل على الحقيقة من لفظ الحقيقة، بل هي لا يدل عليها شيء كثبوت معناها، وهل اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى)[2].

والذي يتابع مجريات الأحداث وإقبال الناس على الإسلام في أوروبا وغيرها،–من البلاد التي لا تنطق بالعربية –، يلاحظ أن سبب إسلام الكثير منهم، كان بسبب سماع مقطع من القرآن الكريم، وتأثره بهذه التلاوة، وكثيراً ما نشاهد مناظر تنزل على مواقع (الإنترنت) لأشخاص لا يعرفون اللغة العربية، وهم في حالة تأثر بهذا الصوت المعجز[3]. ولذا لا بد للدعاة في العالم بشكل عام، والذين يقومون بالدعوة في البلاد الغربية والشرقية بين أناس لا يعرفون العربية بشكل خاص، أن يجعلوا هذه الخصيصة في كتاب الله مفتاحاً للقلوب، لأنها أسرع طريقة لإدخال هذا الدين في قلوبهم، فكلام الله يخاطب القلب والنفس والروح، ويلامس الفطرة البشرية التي خلقهم الله عليها، وطريقة القرآن أكثر إقناعاً من طرق الجدل والفلسفة، لأنها تضعهم على مقطع الحق واليقين، بمجرد أن يلامس هذا الخطاب قلوبهم، فيدركون أن هذا النسق من القول قادم من وراء الوجود المشهود، ولا يشبه ما يقوله البشر...!!

(1) عباس، فضل وسناء، إعجاز القرآن الكريم (ص343–344). نقلاً عن دائرة معارف القرن العشرين (ج675/7).

(2) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص216).

(3) شهدت ذلك بنفسي أثناء زيارتي لأوروبا في بداية التسعينات من القرن الماضي، ورأيت تأثير القرآن عليهم وعلى وجوههم، بعد أن قام أحد المسافرين المسلمين بتلاوة شيء من صدر سورة البقرة، وخواتيم سورة المائدة على مسامعهم، في أحد القطارات أثناء تنقلي بين المدن الأوروبية –في حين لم يفهموا من الكلام القرآني حرفاً واحداً –، حتى عبرت إحدى الفتيات للركاب بقولها: شعرت بأن هذا الكلام سيطر على قلبي وتملكه، فلم أعد أسيطر عليه، كما عبر شاب آخر بقوله: لا بد أن يكون وراء هذا الكلام شيء ما...!!، وطلب عنوان أحد المسلمين ليتواصل معه ويتعرف على الإسلام. ولمزيد الاطلاع على هذه الحقيقة، يمكن مشاهدة العديد من المقاطع بالدخول على هذا الرابط: (https://www.youtube.com/watch?v=IGG9sLjChl4)

ونختم هذا المبحث بما ذكره الكاتب الأمريكي (جيفري لانج)[1] حيث قال: ليس من الضروري أن يكون الإنسان مسلماً لكي يشعر بهذه القوة الخارقة للقرآن...)، وما قرره عالم اللغة العربية البريطاني(آثرجي آربري) ، حين تذكر كيف أن القرآن سانده في فترة عصبية من حياته، حتى قال: إن استماعه إلى القرآن كان بالنسبة له كاستماعه إلى نبضات قلبه)[2].

المبحث الثالث: علاج الأمراض بالإيقاع القرآني.

ثبت – من خلال البحث– أن الإيقاع القرآني الخاص علاج ناجع لأمراض القلوب، من الشبهات والشهوات والضلال، وأنه مفتاح للنور الذي يبدد كل ظلمات الجهل والضلال العقدي والفكري، وأن هذا الخطاب الرباني هو الشعلة التي أنارت قلوب المؤمنين، ويحمل هذا النسق العجيب في طياته مطرقة يطرق بها قلوب البشر، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة .

ولكن هذا المبحث سيتناول نوعاً آخر من التأثير على البشر، وهو التأثير على قلوبهم وشفاؤها من الأمراض النفسية والعصبية، كما يتناول تأثيره على الأجساد البشرية وشفاؤها من العلل والأمراض المادية أيضاً.

المطلب الأول: علاج الأمراض النفسية والعصبية بالإيقاع القرآني.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: 57، 58]. (والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال...، وحقيقة الشفاء زوال المرض والألم)[3]، وذلك بـــ (إصلاح خفايا النفس وشفاء أمراضها الباطنية...، وشفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق، وسائر الأمراض النفسية...، والتحقيق أن الصدر يطلق على القلب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة ، وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لأنه لبها، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها)[4]. ولو أمعن الباحث النظر والتدبر في نسق الآية لأدرك بالفعل أنه (تعبير عجيب عن حقيقة عميقة، إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدب في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول، يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب، ويدب فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب، ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية، ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب

(1) ولد جيفري لانج من عائلة كاثوليكية، درس أيضاً في مدرسة كاثوليكية، رغم أنه درس بمدرسه كاثوليكيه طوال سنوات حياته، حصل على الدكتوراه في الرياضيات ودرس في جامعة سان فرانسسكو، تعرف على عائله مسلمه توطدت به علاقه صداقه. سألهم عن الإسلام فأعطوه نسخه مترجمة من القرآن، وبعد قراءة القرآن أسلم ، ويؤكد د.ل انج أنه يجد راحة روحية كبيرة. انظر: ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%8A%D9%81%D8%B1%D9%8A_%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%AC

(2) ساعي، أحمد، إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن (ج1/ 149).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير(ج201/11).

(4) رضا، محمد، تفسير المنار(ج328/11-329).

الطمأنينة في القلوب إلى الله، وإلى العدل في الجزاء، وإلى غلبة الخير، وإلى حسن المصير، وإنها لعبارة تثير حشداً وراء حشد من المعاني والدلائل، وتعجز عنها لغة البشر ويوحي بها هذا التعبير العجيب)[1].

وكما أن رحمة الله تجلت في نفخ الروح في الإنسان فبثت فيه الحياة والحيوية والنشاط، فكذلك تجلت رحمة الله للإنسان في القرآن الذي يبث الروح في النفس البشرية، ويعالج ما فيها من أدواء.(ففي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح، وطمأنينة وأمان. وفي القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن، ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة، فالقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين. وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان، وهي آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين....)[2].

وعلماء النفس الغربيين –حتى الملاحدة منهم– يعترفون اليوم بقدرة الأصوات على العلاجات النفسية في الإنسان، وحتى الجسدية منها، ومنها(علاج الأمراض المستعصية، وهنالك معاهد وأكاديميات تدرس هذا العلم وتوثقه، وهنالك عشرات الآلاف من المعالجين بالصوت، وذهب إليهم ملايين البشر، وأسلوبهم في العلاج لا يتجاوز أصوات الموسيقى أو النقر في وعاء أو دحرجة كرات زجاجية، ولا نجد من علماء الغرب من ينكر عليهم هذه الأساليب..!!)[3].

فإذا كان هذا التأثير في كلام الناس وأصوات الموسيقى، فكيف بكلام الله الذي يضع المستمع له في حالة من الخشوع والتأمل والتدبر والتأثير، ما يصعب على أحد إنكاره .؟!

ورغم أن الصوت القرآني وإيقاعاته المعجزة تفوقت على كل صوت في تأثيرها في النفس البشرية، إلا أن هناك أصوات أو صلوات تضع أصحابها تحت تأثير يمكن أن يخلق في نفوسهم شيئاً من التذلل والتأملات والعواطف النفسية أثناء عبادتهم في معابدهم وكنائسهم، وأثبتوا هذا الأثر على الإنسان بالفعل. ومن هنا كانت دراسات علماء النفس في الغرب غالباً على هؤلاء من أصحاب الديانات الأخرى. واستفاد علماء المسلمين من هذه الدراسات ليثبتوا تفوق القرآن الكريم على جميع كلام البشر، من هذا الوجه بالذات .

ومن هنا حين يتحدث العلماء عن الأثر النفسي للإيقاع القرآني، فإنهم ينطلقون من منطلقات علمية بحتة ودراسات وأبحاث لكبار علماء الغرب في العلوم والدراسات النفسية. ومن أكثر من خاض في هذا المضمار الدكتور عبد الدايم كحيل، وأثبت في دراساته تفوق القرآن في علاج الأمراض النفسية والجسدية أيضاً بعد تعرضه المتكرر لتأثير الإيقاع القرآني ونغماته المعجزة، لأنه يخلق فيه حالة من الخشوع والتأملات والتدبر ما يساعده على التخلص من كثير من الأمراض، خاصة النفسية منها، ويمكن أن نستعين بهذه الدراسات في هذا البحث ونلخص مقتطفات من كتاباته ونتائج أبحاثه.

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن (ج1803/3).
(2) المرجع السابق (ج4/ 2248).
(3) كحيل، عالج نفسك بالقرآن (ص168).

يقول د. كحيل[1] (تؤكد الدراسات الحديثة أهمية التأمل والخشوع في استقرار عمل القلب، ويقول الأطباء اليوم: إن أمراض القلب هي السبب الأول للموت في العالم، وسبب هذه الأمراض هو وجود اضطراب في نظام عمل القلب، ومن هنا ندرك أهمية الخشوع في استقرار وتنظيم أداء القلب. كما أثبتت الدراسات أن التأمل يعالج الاكتئاب والقلق والإحباط، وهي أمراض العصر التي تنتشر بكثافة اليوم، ليس هذا فحسب، بل وجدوا أن التأمل المنتظم يعطي الإنسان ثقة أكثر بالنفس، ويجعله أكثر صبراً وتحملاً لمشاكل وهموم الحياة...، ونستطيع أن نستنتج أن الإنسان كلما كان أكثر في حالة خشوع فإن الموجات (التي يصدرها الدماغ) تصبح أقل ذبذبة، وهذا يريح الدماغ ويقويه ويساعده على إصلاح الخلل الذي أصابه نتيجة مرض أو اضطراب نفسي مثلاً، لذلك يعتقد الباحثون بأن الانفعالات ترهق الدماغ...، وقام عدد من الباحثين بدراسة الدماغ لدى أشخاص طلب منهم أن يغمسوا أيديهم في الماء الساخن جداً، وقد تم رصد نشاط الدماغ نتيجة الألم الذي شعروا به. وبعد ذلك تم إعادة التجربة مع أناس تعودوا على التأمل المنتظم، فكان الدماغ لا يستجيب للألم سبب تأثيراً عصبياً، منع الألم من إثارة الدماغ. وهكذا نستطيع أن نستنتج أن الخشوع يساعد الإنسان على تحمل الألم، بل وتخفيفه بدرجة كبيرة، وهو أفضل وسيلة لتعلم الصبر، وعلاج فعال للانفعالات...، ومن نتائج التجارب والأبحاث التي أجريت مسحاً للدماغ بالرنين المغناطيسي الوظيفي، أن الإنسان الذي يتعود على التأمل أكثر قدرة على التحكم بعواطفه وأكثر قدرة على التحكم بانفعالاته، وبالنتيجة أكثر قدرة على السعادة من غيره...، إن الخشوع يعالج الانفصام في الشخصية بشكل أكثر فعالية من أي دواء كيماوي، لأن الخشوع والتفكر ينشطان هذا الجزء من الدماغ (منطقة الناصية) بشكل كبير ويعدل الخلل الحاصل فيه...، والانفصام في الشخصية يمكن أن يسبب خسارة في خلايا الدماغ، تصل إلى 10% من حجمه، ويمكن تعويض هذه الخسارة بقليل من الخشوع كل يوم...، إن الصلاة لها أثر كبير على علاج اضطرابات القلب وعلى استقرار عمل الدماغ، ولذلك نجد أن القرآن جمع بين الشفائين، الصلاة والخشوع، فقال: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [المؤمنون: 1، 2]. فالقرآن هو الوسيلة الرائعة لممارسة الخشوع لله تعالى...، والخشوع منهج يعيشه المؤمن كل لحظة كما كان الأنبياء يفعلون، فإذا تأملنا حياة الأنبياء عليهم السلام نلاحظ أنها مليئة بالخشوع، بل كانوا في حالة خشوع دائم، وهذا ما أعانهم على التحمل والصبر على الأذى، قال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]... ويؤكد الدكتور كحيل نتيجة بحثه بقوله: ومن كان لديه مشكلة نفسية، فما عليه إلا أن يستمع لآيات القرآن بشيء من التدبر ويعيش في جو الآيات القرآنية)[2]. وسبق أن ذكرنا شهادة

(1) عبد الدائم الكحيل هو باحث متخصص في إعجاز القرآن الكريم والسنة المطهرة، من مواليد مدينة حمص بسورية عام 1966 حاصل على بكالوريوس هندسة القوى من كلية الهندسة الميكانيكية بجامعة دمشق عام 1995 . دبلوم دراسات عليا هندسة السوائل 1997، دبلوم التأهيل التربوي من كلية التربية بجامعة دمشق 1999م، وله عدد كبير من الكتب والأبحاث العلمية، . موسوعة الكحيل للإعجاز العلمي (http://www.kaheel7.com/ar/index.php?option=com_content&view=article&id=86:2010-02-26-21-45-26&catid=48:2010-02-03-00-24-46&Itemid=1)

(2) انظر: كحيل، عالج نفسك بالقرآن (ص131-159).

المستشرقين في هذا الصدد(أن جمال القرآن الأدبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل، وهما يضعان من يتلوه –ولو كان أقل الناس تقوى – في حالة خاصة من الحماسة)[1].

وأما تأثير تلاوة القرآن على الشياطين من الجن، وحماية المسلم من وساوسه وإفساده المادي، فأمر مسلم به ،ومعروف ومشاهد بين المسلمين، وثبت أن تلاوة سورة البقرة في البيت ،تحمي البيت من أضراره وشره، لأن الشيطان مسلط على ابن آدم (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[2]، يوسوس في صدره، ويغريه لكل شر وفساد وعصيان، وقد يسبب له أمراضاً نفسية بسبب تلك الوساوس، وقد أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم، لمقاومته ومحاربته بقراءة القرآن(لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة...)[3]. وحقيقة فرار الشيطان من ذكر الله، أمر معلوم من الدين بالضرورة، وثابت في القرآن والسنة، أما من القرآن: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف: 200]، وأما من السنة: فعن سليمان بن صرد[4]، قال: كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد "[5]، ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم تضايق الشيطان وفراره من ذكر الله بقول: (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء "[6]. والقرآن هو أفضل الذكر، فلا عجب أن يفر الشيطان من تلاوته وسماعه، فيذهب أو يخفف تسلطه على الإنسان. كما أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى قراءة آية الكرسي قبل النوم،(كما ورد في قصة أبي هريرة رضي الله عنه، وفيها (....إذا آويت إلى فراشك فاقرأ أية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان)[7].

وهذه النصوص وغيرها من الكتاب والسنة تؤكد أثر الشيطان على نفس الإنسان، كما تؤكد أثر تلاوة القرآن على الشيطان وفراره من ذكر الله وإيقاع القرآن الذي ينزل عليه كالصواعق، فيفر منها أو يتصاغر من تأثيرها. وعندها ترتاح النفس

(1) وهو كلام المستشرق (درمنغم)، في كتابه (حياة محمد) نقلاً عن كتاب (محمد رسول الله لبشري زخاري ميخائيل ص34)، انظر: نضرة النعيم (ج522/1).

(2) البخاري: صحيح البخاري، الاحكام/ الشهادة تكون عند الحاكم، في ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم،(70/9)، رقم الحديث(7171). من رواية علي بن حسين –رضي الله عنهما–.

(3) مسلم: صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها/ استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، (539/1)، رقم الحديث(780). من رواية أبي هريرة –رضي الله عنه–.

(4) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون عبد العزى بن منقذ، السلولي الخزاعي، أبو مطرف، صحابي، ولد ستة 28 ق.ه ، شهد الجمل وصفين مع علي، وسكن الكوفة، فقتل سليمان بعين الوردة، قتله يزيد بن الحصين، سنة 65ه. له 15 حديثا. الزركلي، الأعلام، (127/3).

(5) البخاري: صحيح البخاري، بدء الخلق/ صفة إبليس وجنوده، (124/4)، رقم الحديث(3282).

(6) مسلم: صحيح مسلم، الأشربة/ آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (1598/3)، رقم الحديث(2018). من رواية جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما–.

(7) وهي قصة أبي هريرة مع الشيطان الذي جاءه ليلاً عدة مرات يحثو من الطعام، بعد أن وكله النبي بحفظ زكاة رمضان، والقصة مشهورة. البخاري: صحيح البخاري، فضل سورة البقرة ، (ج6 / 188)، رقم الحديث(5010).

ويطمئن القلب { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: 28]، وهي حقيقة واقعة، يدركها كل مسلم في حياته، خاصة عندما يمر في حالات عصبية واضطرابات نفسية، فإذا سمع القرآن بقلب خاشع، أو قرأه متفاعلاً مع آياته وكلماته، فإنه لا شك أن هذا الأثر يخلق في القلب ارتياحاً وطمأنينة وانشراحاً في الصدر، لا يحدثه كلام آخر أو ألحاناً موسيقية أخرى ..!!

وفي دراسة حديثة قام بها عالم النفس اليهودي الأستاذ(عوفر غروزبارد) من جامعة (بنجريون) في دولة الكيان اليهودي، بحث قضية تأثير الإيقاعات القرآنية على المرضى المصابون بالأمراض النفسية، واستمرت دراسته خمس سنوات، شملت الدراسة النظرية للقرآن الكريم، والدراسة العملية، قام خلالها بدراسة ميدانية وتجارب، على أكثر من ثلاثمائة حالة في الوسط الجامعي، وبين طلاب يعرفون العربية ويفهمونها، وكانت النتائج –كما ذكر هو بنفسه– مذهلة للغاية، وتأثيرها على المرضى إيجابي ومؤثر، فكتب بحثاً كبيراً بعد هذه التجربة الطويلة[1].

المطلب الثاني: علاج الأمراض الجسدية المادية بالإيقاع القرآني.

قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82]. ولا ينحصر مفهوم الشفاء في الآية على شفائه من الشرك والضلال والجهل والنفاق، وإنما يشمل مفهوم الشفاء في الآية –كما نص العلماء بصراحة– شفاء الأمراض البدنية أيضاً. قال صاحب المنار جامعاً بين المفهومين (...وضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني، فقد يكون سببه دينياً، وقد يكون دنيوياً، كالخوف والحاجة، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما، ومن الأول: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: 125]...، والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر...، واستدلوا –على التداوي بالقرآن من الأمراض البدنية –بما أخرجه البيهقي(أن رجلا شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجع حلقه فقال: " عليك بقراءة القرآن"[2].[3] كذلك(الرقية بالفاتحة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الأمراض)[4]. كما ثبت في الصحيح أنه (انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ (الحمد لله رب العلمين...)(الفاتحة) فكأنما نشط من عقال، فانطلق

(1) تلفزيون أو فضائية (i24 NEWS) (برنامج أخبار اليوم، تقرير إخباري)، وانظر الرابط الآتي : https://www.facebook.com/rateb1959/videos/307381596422152/. وقد قام بترجمة هذا البحث إلى العربية، الأستاذ (موسى عوده).

(2) البيهقي ، شعب الإيمان (171/4)، رقم الحديث(2344).عن واثلة بن الأسقع. قال الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد في تحقيقه لهذا الكتاب: أن في اسناده من لم أعرفه، وهو إبراهيم بن ظبية، غير واضح في الأصل ورسم "ظبية" هكذا في (نسخة) (ن) ولم أعرفه.

(3) انظر: رضا، محمد، تفسير المنار(ج330/11).

(4) المرجع السابق (ج330/11).

يمشي ما به (قلبة)، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: إقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله، فذكروا له فقال: (وما يدريك أنها رقية، ثم قال: أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً) فضحك النبي صلى الله عليه وسلم)[1]، وفي الحديث (عليكم بالشفائين ،العسل والقرآن)[2].

وهذا نص واضح في فاعلية القرآن وأثره في شفاء العلل المادية الجسدية، ورد على كل من أنكر ذلك، وحصر أثره في الجانب المعنوي والنفسي. وعلماء الغرب يقرون بأثر صوت الإنسان والأصوات والموسيقية في شفاء الأجساد من الأمراض المادية. (وأدركوا بعد تجارب استمرت على مدى خمسين عاماً بأن الدماغ لا يعمل كحاسوب كبير، بل هناك عدد ضخم جداً من الكمبيوترات تعمل بالتنسيق مع بعضها، ففي كل خلية هناك جهاز كمبيوتر صغير، وهذه الكمبيوترات تتأثر بأي اهتزاز حولها، وبخاصة الصوت. ولذلك يمكن القول: إن خلايا كل جزء من أجزاء جسم الإنسان تهتز بترددات محددة، وتشكل بمجموعها نظاماً معقداً ومتناسقاً يتأثر بأي صوت يحيط به. وهكذا فإن أي عرض يصيب أحد أعضاء الجسم فإنه يسبب تغيراً في طريقة اهتزاز خلايا الجزء، وبالتالي سوف يخرج هذا الجزء عن النظام العام للجسم ويؤثر على كامل الجسم...، وانتهى الباحثون إلى أن حاسة السمع هي أهم حاسة عند الإنسان على الإطلاق، وأن الأذن تتحكم بكامل جسم الإنسان، وتنظم عملياته الحيوية، وتنظم توازن حركاته وتناسقها بإيقاع منظم، وأن الأذن تقود النظام العصبي عند الإنسان. وبالتالي فإن الأعصاب السمعية تتصل مع جميع عضلات الجسم، ولذلك فإن توازن الجسم ومرونته وحاسة البصر تتأثر جميعها بالأصوات، وتتصل الأذن الداخلية مع جميع أجزاء الجسم، مثل القلب والرئتين والكبد والمعدة والأمعاء، وكذلك فن الترددات الصوتية تؤثر على أجزاء الجسم بالكامل. وعبر بعضهم عن هذا الموضوع بقوله: إن الصوت يحمل الرنين الروحي الخاص، والذي يجعل من هذا الصوت الوسيلة الأقوى للشفاء)[3].

ومن خلال الحياة مع الإيقاعات الجميلة لهذا الكتاب الكريم، خاصة –إذا كانت الفترة طويلة – لا يخطئك أن تخرج بحقيقة، أن آثار هذا الكلام الرباني لا ينحصر على النفس والروح والجسد أيضاً، إنما يتعدى أثره الإيجابي على العقل والتفكير وصفاء الذهن وقوة الذاكرة، وعمق الفهم وسعة الأفق، والرؤيا الواضحة للحياة والأشياء والمخلوقات من حول عاشق القرآن، ومن يتعلق قلبه بالآيات القرآنية. يقول الأستاذ سيد قطب: بعد التجربة الطويلة التي عاشها في ظلال القرآن، ويعبر فيها عن أثر هذا الكتاب الرباني على نفسه وروحه وعقله وإدراكه ورؤيته للأشياء من حوله،(الحياة في ظلال القرآن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه...، وعشت في ظلال القرآن أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى

(1) قلبة: علة يقلب منها من شدة الداء. البخاري: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الإجارة/ ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب(ج529/4)، رقم الحديث (2276). وأيضاً في، الطب/ الرقية بفاتحة الكتاب ، (ج208/10)، رقم الحديث(5736). مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، السلام / جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، (ج3324/8) ، رقم الحديث(5629).

(2) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، الطب، (ج447/4)، رقم الحديث (8225). قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. من رواية عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–.

(3) انظر: كحيل، عالج نفسك بالقرآن (ص19–26). ومن الباحثين والعلماء الذين قدموا أبحاثاً ودراسات في هذا الموضوع: (Fabien /hans jenny Sternheimer /maman) . انظر: المرجع السابق (ص19–26).

اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة...، وأعجب، ما بال الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل، النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه)[1].

وفي تجربة أخرى قام بها د. عبد الدايم كحيل على نفسه، بحث فيها أثر القرآن في العلاج، وأخذت معه سنوات، وكان لها نتائج إيجابية مفاجئة، يقول:(استمرت هذه التجربة ثلاث سنوات، كنت أستمع إلى القرآن كل يوم لا يقل عن عشر أو خمسة عشر ساعة، هيأ الله لي هذه الظروف في ذلك الوقت لحفظ القرآن وتأمله والاستماع إليه كل يوم لفترات طويلة، وبعد أن مضى أشهر لاحظت شيئاً غريباً طرأ علي، فقد كان لدي بعض الأمراض المزمنة التي كنت أعاني منها بشكل دائم، مثل الإمساك، وبعض الآلام في الكتف، وأمراض أخرى، ففوجئت بأن هذه الأمراض اختفت بشكل مفاجئ، ولم يعد لها أي أثر. وهناك شيء أيضاً، وهو أنني كنت أقرأ صفحة من كتاب الله، لا أستطيع أن استوعب هذه الصفحة من المرة الأولى، فكنت أعيد القراءة عدة مرات، وأحيانا لا أفهم شيئا، وفوجئت بعد حفظي للقرآن واستماعي له لساعات طويلة، أنني عندما أفتح أي كتاب من أي علم كان، أستطيع أن أستوعبه بسهولة، واستنبط كذلك، أي أن القرآن يعطيه زيادة في القدرة على الاستيعاب وتطوير المدارك والإبداع) [2].

خاتمة ونتائج:

بعد أن أعان الله سبحانه على إتمام هذا البحث، خلص الباحث بنتائج مهمة، أهمها:

أولاً: الإيقاع القرآني يتميز تميزاً واضحاً خارقاً لمألوف كل نغمة أو موسيقى عرفها البشر عبر التاريخ كله.

ثانياً: يستطيع الإنسان –ولو كان عامياً –تمييز هذه النغمة وهذا الإيقاع من بين النغمات أو الألحان الموسيقية، كما يميز الفم طعم الفاكهة الجديدة من بين أنواع الفواكه المعروفة.

ثالثاً: الإيقاع القرآني يخاطب كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، مهما اختلفت هذه الأنفس في الجنس والعمر واللغة والدين، ما دام هناك استعداد مسبق للسماع، فهو روح يخاطب الأرواح ويسري في النفوس والقلوب، كما تسري الأرواح في الأجساد .

رابعاً: النغمة القرآنية ووقعها على الإنسان علاج للنفوس وشفاء للصدور من الأمراض النفسية والوساوس الشيطانية.

خامساً: النغمة القرآنية ووقعها على الإنسان يساعد في علاج الأجساد من الأمراض التي تفتك بالأبدان.

سادساً: تشكل النغمة القرآنية وإيقاعها المعجز، مفتاحاً للقلوب بيد الدعاة إلى الإسلام، خاصة بين الشعوب التي لا تنطق بالعربية.

سابعاً: تكشف الدراسة عن وجه الإعجاز الصوتي والتأثيري على نفس الإنسان في القرآن الكريم وأن هذا الوجه بلا شك منبثق عن وجه الإعجاز البياني في القرآن.

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن(ج11/1).

(2) كحيل، عالج نفسك بالقرآن (ص110).

توصيات:

أولاً: آن الأوان أن يدرك الباحثون أهمية النغمة القرآنية وإيقاعها المؤثر في النفوس، لتكون لها الأولوية في دراساتهم القرآنية.

ثانياً: ينبغي على كليات اللغة والأدب العربي وأقسام الدراسات الإسلامية، فتح قسم خاص ومستقل لبحث جمال النغمة القرآنية وسر إيقاعها المعجز، وتشجيع الباحثين نحو هذا الاتجاه، لإثراء المكتبة القرآنية بهذه الدراسات.

ثالثاً: إرشاد الدعاة الذين يعملون في الدعوة إلى الإسلام – بين الشعوب الناطقين بغير العربية–، أن يجعلوا النغمة القرآنية مفتاحاً لقلوبهم، قبل عرض الدعوة عليهم.

المصادر والمراجع:

إبراهيم، مصطفى، وآخرون (د. ت). *المعجم الوسيط*،(مجمع اللغة العربية بالقاهرة). (د. ط). القاهرة: دار الدعوة.

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير. (1399هـ – 1979م). *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، (د. ط). بيروت: المكتبة العلمية.

ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (1398هـ /1978م). *سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)*. تحقيق: سهيل زكار. ط1. بيروت: دار الفكر.

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني،(1421 هـ – 2001 م). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، وآخرون. ط1. مؤسسة الرسالة.

الألباني، محمد ناصر الدين الألباني. *صحيح وضعيف سنن الترمذي. (د. ط)*. برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني. من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

الألباني، محمد ناصر الدين الألباني. *صحيح السيرة النبوية*. ط1. الأردن، عمان: المكتبة الإسلامية.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (1422ه). *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)*. تحقيق: محمد بن ناصر الناصر ، شرح وتعليق: د. مصطفى ديب البغا. ط1. بيروت: دار طوق النجاة.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، (1422ه). *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)*. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1. بيروت: دار طوق النجاة.

البغوي، أبو محمد الحين بن مسعود بن محمد بن الفراء. (1420ه). *معالم التنزيل في تفسير القرآن المعروف بـ تفسير البغوي*. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، (1423هـ- 2003م). *شعب الإيمان*. تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي. صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، ط1، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، (1405ه)، *دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

جامعة القدس المفتوحة، (2008م)، مقرر *كتاب (إعجاز القرآن)*، الأردن، عمان: منشورات الجامعة.

جامعة القدس المفتوحة، (2010م)، *كتاب مقرر الثقافة الإسلامية*، الأردن، عمان: منشورات الجامعة.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، (1411ه-1990م). المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حميد ،صالح بن حميد ومجموعة من العلماء المختصين، (2004م). *موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم*. ط3. جدة: دار الوسيلة.

ابن حيان، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (1420ه). *البحر المحيط في التفسير*. تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت: دار الفكر.

الخطابي، حمد بن محمد، والرماني والجرجاني. *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القادر الجرجاني*. تحقيق محمد خلف الله أحمد، و محمد زغلول سلام. ط3، القاهر: دار المعارف.

دراز ، د. محمد عبد الله، (2000م). *النبأ العظيم*. ط2، الرياض: دار طيبة.

الرافعي، مصطفى صادق، (1973م)، *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ط9، بيروت: دار الكتاب العربي.

رضا ، الإمام محمد رشيد، (2005م)، *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس،(2002 م)، الزركلي الدمشقي، *(الأعلام)*، ط15، دار العلم للملايين.

الساعي، أحمد بسام، (2012م-1433ه)، *المعجزة ،إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن*، ط1، الولايات المتحدة الأمريكية: فرجينيا.

السهلي ، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (د. ت). *الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية*، للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري، (د. ط). بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي. (1982ه). *التصوير الفني في القرآن*. ط7. بيروت: دار الشروق.

سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي. (2004). *في ظلال القرآن*. ط34. القاهرة: دار الشروق.

السيوطي، جلال الدين السيوطي الشافعي. (د. ت). *الإتقان في علوم القرآن ، وبهامشه كتاب إعجاز القرآن*، للقاضي الباقلاني. (د. ط). دار الفكر للطباعة والنشر.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد الطبري (أبو جعفر الطبري)، (2000م)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق: أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (د. ت). *التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)*. (د. ط). تونس: الدار التونسية للنشر.

عباس ، د. فضل حسن، وسناء فضل عباس، (1991م). *إعجاز القرآن الكريم*. (د. ط). عمان: دار الفرقان.

عزام ، الشهيد عبد الله يوسف مصطفى، (2001م). *دلالة الكتاب والسنة على الأحكام من حيث البيان والإجمال أو الظهور والخفاء*. ط1. السعودية: جدة، دار المجتمع للنشر والتوزيع.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي البصري الدمشقي، (1986م). *البداية والنهاية*. (د. ط). بيروت: دار الفكر.

كحيل ، د. عبد الدايم (د. ت). عالج نفسك بالقرآن. (د. ط). حمص: دار النشر.

مسلم، أبو الحسن القشيري. (د. ت) *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(صحيح مسلم)*. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، (2008م). *لسان العرب*. د. أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل. ط1. بيروت: عالم الكتب.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، (1414هـ). *لسان العرب*. ط3. بيروت: دار صادر.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمد حافظ الدين النسفي، (1419ه)، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بتفسير النسفي*، تحقيق: يوسف علي بدوي. (د. ط). بيروت: دار الكلم الطيب.

ابن هشام، أبو محمد جمال الدين ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، (1955م)، *السيرة النبوية المعروف "بسيرة ابن هشام"*، تحقيق: مصطفى السقا. ط2. مصر: نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

المواقع الألكترونية

1. تلفزيون أو فضائية (أخبار اليوم)، وانظر الرابط الآتي : https://www.facebook.com/rateb1959/videos/307381596422152/
2. *http://www.kaheel7.com/ar /*
3. *https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%8A%D9%81%D8%B1%D9%8A_%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%AC*
4. ***موسوعة الكحيل للإعجاز العلمي***

http://www.kaheel7.com/ar/index.php?option=com_content&view=article&id=86:2010-02-26-21-45-26&catid=48:2010-02-03-00-24-46&Itemid=1)

5. https://www.youtube.com/watch?v=IGG9sLjChl4